مدوّنة تُعنى بنشر الكتابات التخصصية لتراعة الحوزة العلمية الشريفة
كتابات
قلم الحوزة العلمية الشريفة
Ketabat.org

المحكم والمتشابه وتوليد المعرفة

نموذج تطويري لعلوم القرآن

السيد محمود الموسوي

على سبيل التقديم

ماذا تقول فيمن يُعطى أسباب التقدم فلا يأخذ بها؟

وكيف تنظر لمن تقدّم له أداة النجاح، فلا يعيرها اهتماماً؟

وبأي وصف يمكن أن تصف من يُعطى مفتاحاً للخروج من الفتن والمشكلات، فيتركه وراء ظهره؟

بلا أدنى شك ستجيب وأجيب ويجيب كافة العقلاء بأن هذا الإنسان سيخرج من دائرة العقلاء وسيدخل ضمن صنف المجانين، وهنا أتذكر ما تحدّث عنه الإمام الشيرازي الراحل (قدس سره) في أحد كتبه، يشير إلى أن من نسميهم مجانين في الواقع هم أصحاب ابتلاء ولا يضرون إلا أنفسهم في الغالب، أما المجانين الحقيقيون فهم من يحسبون أنهم عقلاء وما هم كذلك، فهم يضرون أنفسهم ويضرون غيرهم، لأنهم لم يأخذوا بأسباب التقدم والانتصار، فيكونوا أداة من أدوات الهدم والتخلف.

نداء العقل الذي خلقه الله تعالى من نور، يكشف لنا بوضوح لا لبس فيه أنه ينبغي لنا أن نأخذ بأسباب التقدم وبأدوات النجاح، ومفاتيح المشكلات من حولنا، لنتخطاها ونتغلب عليها، وما يكون ذلك إلا بهدى القرآن الكريم، كلام الرب عز وجل لخلقه على مر العصور وفي سائر الأمكنة، **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً)**[1]، وهو **(يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ)**[2] من خلال بصائره التي يبصّر بها الناس ليمشون بها في الناس والحياة.

[1] / سورة الإسراء، آية٩

[2] / سورة الجن، آية ٢

رسول البشرية العظيم (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) من بعده دعونا صراحة لأن نتمسّك بالقرآن ونلجأ إليه؛ ليخرجنا من ظلمات الجهل والفتن إلى نور العلم ورفاه الحياة الطيبة، كما عن الإمام الصادق (ع) عن الرسول (ص): **(فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدليل يدل على خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب ويتخلص من نشب فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور)**[٣]، فأي عذر يمكن أن نعتذر به بعد صراحة البيان، وصراحة الدعوة؟

كل أيامنا أيام القرآن الكريم، وربيعه شهر رمضان المبارك، الذي تتجلى فيه حقيقة القرآن وعظمته، من خلال عظيم ثواب قارئه، وعظيم ثواب متعلمه، وعظمة التدبر في آياته، وعظمة حامله بالحق ليستنير به في الحياة، ويكون في أيامه ولياليه قلب الإنسان خير وعاء لبصائره، كما قال رسول الله (ص):

(إن هذا القرآن هو النور المبين، والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى، والفضيلة الكبرى، والسعادة العظمى، من استضاء به نوّره الله، ومن اعتقد به في أموره عصمه الله، ومن تمسّك به أنقذه الله، ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله، من استشفى به شفاه الله، ومن آثره على ما سواه هداه الله، ومن طلب الهدى في غيره أضلّه الله، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوّله الذي ينتهي إليه، أدّاه الله إلى جنات النعيم، والعيش السليم..)[٤].

---

[٣] / الكافي، للكليني، ج٢،ص٥٩٩

[٤] / بحار الأنوار، للمجلسي،ج٩٨،ص٢٤

وقال الإمام أمير المؤمنين (ع): **(وتعلموا كتاب الله تبارك وتعالى، فإنه أحسن الحديث، وأبلغ الموعظة، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فإنه شفاء لما في الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص، (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)، وإذا اهتديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم منه لعلكم تفلحون)**[٥].

وقالت سيدتنا فاطمة الزهراء (ع): في شأن كتاب الله العزيز وضرورة اتباعه التماس الهدى منه: **(ونحن بقية استخلفنا عليكم، ومعنا كتاب الله، بيّنه بصائره، وآي فينا منكشف سرائره، وبرهان منجلية ظواهره، مديم للبريّة إسماعه، قائد إلى الرضوان اتباعه، مؤدّ إلى النجاة استماعه، فيه بيان حجج الله المنوّرة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة)**[٦].

كل تلك التوجيهات ومثلها الكثير، التي تبيّن أن القرآن نور ما فوقه نور، وبه يعطى نجاح الإنسان الحقيقي، ومفاتيح الحكمة في الحياة، لنيل خيرها في الدنيا والآخرة، إلا أن الشيطان الرجيم مازال يوسوس للإنسان، لكي يهجر القرآن، ليتمكّن منه بعد ذلك، فإن الشيطان يسعى دوماً إلى سلب سلاح المؤمن منه، ليبقى ضعيفاً كما بدأ الله خلقه، فيتمكن من إغوائه والسيطرة عليه، فقد تعهّد بقوله لله عز وجل: **(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)**[٧].

تبريرات هجر القرآن الكريم

أما التبريرات الخاوية التي يدخل من خلالها الشيطان الرجيم لمنع نور القرآن من الوصول إلى قلب الإنسان، لينسف العلاقة بين الإنسان والقرآن، فمنها:

---

[٥] / بحار الأنوار، للمجلسي، ح٧٤،ص٢٩١

[٦] / نفس المصدر، ١٠٧/٦

[٧] /سورة الأعراف، آية ١٦

١/ عدم كفاية الوقت:

يتعذر البعض بأنه لا يمتلك سعة من الوقت لكي يقوم بالتواصل مع القرآن الكريم، وهذا التبرير ليس له واقعية، لأننا نجد أن من يشعر بأهمية شيء، فإنه يخصص له وقتاً ويحرص على أن يهتم به أيّما اهتمام، كما أن الأوقات التي تضيع من الإنسان ليست قليلة، فهو قد يجد لنفسه وقتاً طويلاً للجلوس مع أقرانه، أو لمشاهدة برامج تلفزيونية، أو ماشابه ذلك، فكيف لا يجد لنفسه وقتاً مع القرآن، وهو بهذه الأهمية التي تصب في صالحه!

٢/ الاكتفاء بالتلاوة:

قد يظن شخص بأن التلاوة بما لها من ثواب عظيم، وحث أهل البيت (عليهم السلام) عليها، تكفي في التواصل مع القرآن الكريم، ولكن هذه النظرة ناقصة وتحتاج إلى تتمة، فالتلاوة هي مقدمة للوصول إلى معاني القرآن ونوره إلى القلب والعقل، عبر تدبّر آياته والتفكّر في مضامينه، ولذلك جاء في دعاء بداية تلاوة القرآن عن أبي عبد الله (عليه السلام): **(اللهم فاجعل نظري فيه عبادة، وقراءتي فيه فكراً، وفكري فيه اعتباراً واجعلني ممن اتعظ ببيان مواعظك فيه، واجتنب معاصيك، ولا تطبع عند قراءتي علي سمعي، ولا تجعل على بصري غشاوة، ولا تجعل قراءتي قراءة لا تدبر فيها بل اجعلني أتدبر آياته وأحكامه، آخذاً بشرايع دينك، ولا تجعل نظري فيه غفلة ولا قراءتي هذراً إنك أنت الرؤف الرحيم)**[٨].

وقال الإمام علي (ع): **(تدبروا آيات القرآن واعتبروا به، فإنه أبلغ العبر)**[٩].

[٨] / بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٨٩، ص٢٠٨

[٩] / ميزان الحكمة ، الريشهري، ج٣، عن غرر الحكم.

٣/ عدم التمكّن من فهم القرآن:

يأتي تبرير عدم استطاعة الإنسان على فهم القرآن الكريم بعدة وجوه، وكلها تقود إلى نفس الغاية، وهي نقض غرض القرآن، وحجب نوره عن الوصول إلى القلوب، فإن الله تعالى أنزل كتابه إلى الناس كافة، ولا يمكن أن ينزله عليهم ويطالبهم بالإيمان والهداية والاتعاظ به، دون أن يكون الكتاب نفسه نافذة تطل على الهداية، ودون أن يكون للإنسان القابلية والقدرة على الفهم والوصول إلى الهداية من خلاله، فالقرآن شهيداً بين يدي الرسول (ص) لينذر به الناس، **(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)**[١٠]. وقال عز وجل: **(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)**[١١].

نعم إن القرآن عميق غوره، وله بطون وآفاق قد لا يفهمها إلا العلماء، ولا يفهمها كلها إلا النبي (ص) وأهل بيته (ع)، إلا أنه من جانب آخر فيه مستويات وآفاق، فبعض يفهمه عامة الناس الذين يعرفون العربية وبما لهم من فطرة فطرهم الله عليها، وبما لهم من العقل الذي كرمهم الله به، يمكن أن ينهلوا منه، وبعض يفهمه العلماء والأولياء، كما جاء عن أمير المؤمنين (ع): **(ثم أن الله جلّ ذكره.. قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه ولطف حسه وصحّ تمييزه ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلا الله وأمناؤه الراسخون في العلم).**

وقال الإمام زين العابدين (ع) ببيان لا لبس فيه: **(كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء).**

---

[١٠] / سورة الأنعام، آية١٩

[١١] / سورة ص، آية ٢٩

وأما عندما يقف الإنسان عند الآيات المتشابهات والتي لا يعيها ولا يلامس علمه مضمونها، فلابد أن يلجأ إلى الذين يعلمون الكتاب، العلماء به، الراسخون فيه، فينهل منهم ما نقص عنده، إما عبر التفاسير المكتوبة أو المنطوقة أو التعلّم عند المعلّم، فإنه **(ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلم القرآن أو يكون في تعليمه)** كما قال الإمام الصادق عليه السلام.

٤/ التطفّل على القرآن:

من تسويلات الشيطان الدقيقة التي ينبغي الحذر منها، هي أن يدعي البعض بأننا لا نحتاج إلى مرشد ومبيّن لفهم القرآن الكريم، وبدرجة أخص، يدعون بأنهم ليسوا بحاجة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) لتكون قراءتهم وفهمهم فهماً قويماً. نعم لقد ذكرنا في نقطة سابقة بأن في القرآن ما هو مفهوم لدى عامة الناس من خلال اللغة والعقل، ولكن القرآن عميق، فمن أجل المزيد من المعرفة، ومن أجل الوصول إلى آفاقه العميقة، لابد من التمسّك بأهل البيت (ع) عبر المنهج الذي بينوه والإرشادات التي ذكروها لفقه القرآن والإستفادة منه.

فإن أهل البيت (ع) قد بيّنوا القرآن الكريم بطريقين:

الأول: فسروا الآيات القرآنية، وأولوها في من نزلت وفي من كانت مصاديق لهم، وبينوا دلالات الألفاظ وآفاقها، عبر روايات التفسير المباشر، إلا أن ذلك التفسير لا يعتبر المعنى الوحيد للآية، فإنهم عليهم السلام قد فسروا بعض الآيات بعدة تفاسير، وهذا مصداق لبطون الآيات.

الثاني: قد بين لنا أهل البيت (عليهم السلام) منهج الفهم الصحيح وأعطونا مفاتيحاً، لكي نقوم بعملية فقه القرآن وفهمه، حيث عرفوا لنا المحكم والمتشابه وكيف نتعامل مع الآيات، فنرد المتشابهات إلى المحكمات، وبينوا لنا أن القرآن نزل بإياكِ أعني واسمعي يا جارة، وأشاروا إلى بعض القواعد القرآنية، وأنه يصدّق بعضه بعضاً، وأن على كل حق حقيقة، ولكل صواب نوراً، وأن كلام الله أوله في شيء وآخره في شيء وهو متصل، وماشابه ذلك، كما كانوا يحثون الأصحاب على التوجه نحو القرآن والتفكر فيه، والتدبر في آياته.

فمن القطيعة مع القرآن الكريم هو أن نضل طريقه الصحيح، فنفقد العاصم لمسار العقل، وهم النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الأطهار، ولذلك فإن من فرّق بين الكتاب وبين أهل البيت (عليهم السلام) ضلّوا وأضلّوا، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله على غير ما نزل وعلى غير ما جرى مجراه، وعلى غير ما كان عليهم المثل. وقد عملوا بما تشابه عليهم من الآيات وقد أمروا بأن يؤمنوا بها وأن يردوها إلى محكمها، ليعملوا بالمحكم من القرآن، فهكذا علمنا أهل البيت (عليهم السلام) لنأخذ أسباب القوة والنجاح ونتخطى المشكلات بالقرآن الكريم، فلا نهجره بتبريرات عدم الفهم ولا نجترحه من غير نهج قويم من أهل الذكر.

وقد قال السيد المدرسي مفسر القرآن الكريم[١٢] في هذا الصدد: "إن الشيطان يريد أن يغوينا، إنه عدو لنا فلنتخذه عدواً، ولنطرده من ساحتنا ونحن نتدبّر الآيات القرآنية، ولنقل في أنفسنا إن هذه الآية قد بعثها الله إلينا، وإننا نحن الذين يجب أن نفهمها.

بهذه الروح علينا أن نتدبّر في القرآن، لا بروح متخاذلة مستسلمة لوساوس الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، فأنت عندما تدخل حرباً، بينما تعرف سلفاً أنك ستهزم في هذه المعركة، وأن عدوك أقوى منك لأن سلاحه أمضى من سلاحك، فهل تستطيع أن تنتصر وأنت مستسلم لهذه الحال؟

وهكذا الحال عندما تدخل معركة الفكر، فإن عليك أن تعرف أنك تمتلك سلاحاً ماضياً هو سلاح فكرك وعقلك، وأنت قادر على اكتشاف الحقيقة بنفسك، ولذلك كانت أعظم وصية في هذا المجال تلك التي قالها أحدهم لولده: (يابني إقرأ القرآن وكأنه نزل عليك).

إن هذه الوصية هي من أهم الوصايا التي يجب أن يتبعها الإنسان المسلم، فالقرآن الحكيم يخاطبنا قائلاً: (يا أيها الناس) ونحن من الناس، إلا إذا سلبنا من أنفسنا صفة الإنسانية، فالإنسان الذي يشك في قدرته على فهم القرآن فإنه يكون

---

[١٢] / آية الله العظمى سماحة السيد محمد تقي المدرسي، أحد المراجع العظام، وله تفسير للقرآن تحت عنوان (من هدى القرآن) في ١٨ مجلداً، وطبع حديثاً في ١٣ مجلداً، وله أطروحات قرآنية كثيرة وجديدة، كما أن له منهجية في فهم القرآن الكريم، ويصدر مؤخراً تفسيراً آخر للقرآن الكريم له على دفعات، تحت عنوان (بينات من فقه القرآن).

في الحقيقة قد سلب من نفسه صفة الإنسانية، وكأنه يريد أن يقول: إنني لست عاقلاً! وهذا ما لا ينبغي للإنسان المسلم أن يفعله"[١٣].

بين يدي البحث

نقدّم هذا البحث في سياق البحوث الناظرة للقرآن ككتاب حياة، وعامل تقدّم البشرية، وهداية للبشر على مر العصور، لذا فإن مرامي البحث سوف تتمحور حول التقدّم للحصول على نتائج فاعلة في آليات الفهم القرآني المعاصر، وسوف نبتعد قدر الإمكان عن الإسهاب النظري، وعدم الخوض في المقدمات المطوية، لكي لا تشوش الرؤية الواضحة للبحث.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث قد قدّم كورقة بحثية في مؤتمر العودة إلى القرآن الكريم، الذي عقد تحت عنوان: (فهم النص بين الحاضر وهيمنة التراث)، في ٢-٢٠٠٨/٤م الذي يقيمه مركز الدراسات والأبحاث في حوزة الإمام القائم (عجل الله فرجه الشريف) في سوريا.

سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا لذلك.

[١٣] / القرآن حكمة الحياة، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، ص٤٨

(١)

المحكم والمتشابه كآلية لفهم النص

تأتي أهمية دراسة مفردات علوم القرآن الكريم ومنها (المحكم والمتشابه) تبعاً لأهمية القرآن ذاته، حيث أن القرآن الكريم هو الرسالة الخالدة والخاتمة للبشرية، الموجّه للإنسانية من خالقها، وهو الهدى والنور والفرقان وفيه الأحكام والمعارف المتنوّعة المتصلة بالإنسان في إيمانه وحركته في الحياة، فلا يراد للقرآن وآياته أن تحبس وتقيّد بزمان أو بأمم معيّنة، وإلا لماتت الآيات وانتهى مفعولها، فهو النور الذي لابد أن يتسلل إلى كافة القلوب والعقول، ليأخذ طريقه نحو الفعل والحركة تحقيقاً للحق وتمكيناً للقيم الإلهية بما فيها من مرافئ السعادة البشرية الضامنة للسلام والعدل والكرامة.

فمداخل فهم القرآن الكريم هي علومه، ومنها علم المحكم والمتشابه، هذه المفردة التي جاءت على لسان الروايات الكثيرة في إشارة إلى ضرورة معرفتها وصولاً لمعرفة حقائق النص القرآني المقدّس، وإلا فإن مصير من يجهلها الهلاك والإهلاك إذا ما تحدّث في القرآن وتفسيره، فالنص القرآني تنبجس منه المعرفة من خلال تطبيق القواعد التي ذكرها أهل البيت (ع)، وهي بمثابة عناوين قانونية يمكن الدخول من خلالها لفهم النص القرآني والولوج إلى عالم الرؤية المعرفية، ليس في آيات القرآن وحسب، بل وفي آيات الكون والحياة، كما قال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)**[١٤].

وسوف نقوم بتفصيل ذلك عبر تناولنا (للمحكم والمتشابه) كنموذج توليدي للمعرفة المتجددة مع تجدّد الحياة.

[١٤] / سورة فصلت : ٥٣

(٢)

مفهوم المحكم والمتشابه

لن ندخل في تفاصيل التعاريف التي أوردها العلماء للمحكم والمتشابه إلا أننا نشير إلى حقيقة هامّة حول الكثير من التعاريف التي وضعوها من ناحية اصطلاحية، وهي أن كثيراً منها افتقر إلى الجانب الإنتاجي للمعرفة وجانب كشف الحقائق والنفاذ بالبصيرة من ظواهر الأمور إلى بواطنها ومآلاتها.

هذه في نظري أهم ملاحظة أخذت على التعاريف الكثيرة التي ساقها العلماء لتعريف (المحكم والمتشابه)، وهذه الحقيقة.. حقيقة الكاشفية والإنتاجية ينبغي أن تكون من أهم المميزات للتعريف، فإذا فقدت، فقد التعريف روحه وتعطّلت عجلته، وبالتالي أصبح فاقداً للصوابية، حتى لو كان في التعريف وجه من وجوه المعنى، إلا أن الجزء المقوّم إن جاز لنا أن نقول لابد أن يكون هو بعد الإنتاجية وتوليد المعرفة، وذلك لأننا نلاحظ سياق الروايات التي تحدّثت عن مفردات علوم القرآن ومنها (المحكم والمتشابه) أنها تشير إلى ارتباط معرفتها بمعرفة حقائق الكتاب ودلالات النص، وإفاضاته على كل واقع يعاصره، من ذلك نستجلي أفقاً معاصراً متجدداً من قوله تعالى: **(قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)**[١٥].

وقد التفت إلى هذا البعد الفيض الكاشاني في تفسيره، حيث قال: (وتحقيق القول في المتشابه وتأويله يقتضي الإتيان بكلام مبسوط من جنس اللباب وفتح باب من العلم يفتح منه لأهله ألف باب)[١٦]. فإذا كانت معرفة المحكم والمتشابه له دخاله مباشرة في معرفة القرآن الكريم، المعرفة الحقيقية والصائبة، فلابد أن يكون لمفهوم المحكم والمتشابه، إضافة في هذا السياق، ولو من جهة أن جهله قد يوقع الإنسان في الخطأ والزلل.

---

[١٥] / سورة الكهف : ١٠٩

[١٦] / تفسير الصافي، للفيض الكاشاني، ج١،ص٣١.

لقد سيقت الكثير من التعاريف للمحكم والمتشابه، فمنهم من قال أن المحكم هو الذي قد استغنى بتنزيله عن تأويله، والمتشابه هو ما لفظه واحد ومعناه مختلف[١٧]، وقال بعضهم أن المحكم هو الواضح الدلالة الظاهر الذي لا يحتمل النسخ، والمتشابه هو الخفي الذي لا يدرك معناه عقلاً ولا نقلاً، وقيل أن المحكم هو الذي لا يتطرق إليه إشكال، والمتشابه فنقيضه[١٨]، وعدّ بعضهم الآيات المتشابهات أنها لا تتجاوز المائتي آية فقط[١٩]، وما إلى ذلك من تعاريف. إلا أن كثيراً منها يفتقر إلى الدليل والإحكام، وقد ذكر صاحب الميزان ستة عشر تعريفاً للمحكم والمتشابه، قام بالرد على خمسة عشر منها، وإن كان في التعريفات نسبة من الصحة، أو قد تكون صحيحة في الجملة، إلا أن دورها في بيان القرآن ومعرفة بصائره وانكشافها معانيه، غير ظاهر.

وفي تحديد وبيان مفهوم المحكم والمتشابه، سوف نعتمد أصل المعنى في اللغة، وعلاقته بمعطيات الروايات الشريفة الواردة عن أهل البيت (ع)، والتي هي العمدة في الكشف عن هذه الحقيقة باعتبارهم أمناء الله وأوصياء نبيه، وبيدهم مفاتيح القرآن الكريم، ثم أننا سوف نرجع إلى الآيات القرآنية التي تحدثت عن المحكم والمتشابه، لتحقيق المعنى المستظهر، وسنعمل على استكشاف المعنى تطبيقياً، من خلال الآيات غير المباشرة، التي تؤيد المدعى.

كما وأننا سوف نقوم بالتقدّم خطوة في المجال التطبيقي، كمعطى من معطيات مفهوم المحكم والمتشابه، وهي إبراز قاعدة تطبيقية في هذا المجال.

ولا يخفى أن الغاية من تحرير المفهوم، هي الوصول إلى غايته، التي وضع من أجلها في معرفة القرآن الكريم.

إطلالة اللغة

[١٧] / راجع تفسير القمّي، علي إبن إبراهيم، ج١.

[١٨] / راجع "مناهل العرفان في علوم القرآن" الشيخ محمد عبد العظيم الزماني"طبق لما قرره مجلس الأزهر في دراسة تخصص الكليات الأزهرية" المجلد الثاني.

[١٩] / رأي الشيخ محمد هادي معرفة في كتاب (التأويل في مختلف المذاهب والآراء)، ص١٤

المحكم مأخوذ لغة[٢٠] من الإحكام وهو الإتقان وأحكمه أي أوثقه، وهو أيضاً المنع، فإذا أحكم الفرس منعه وأرجعه. والمتشابه هو التماثل بين شيئين أو أكثر ومنه أخذ الإشتباه، وشبّه عليه الأمر أي لبّسه، والتبس عليه، والشبهة ما يلتبس بين الحق والباطل.

فالمحكم هو المتقن والموثق، فلذلك يمكن التعويل عليه والرجوع إليه.

أما المتشابه فهو المتماثل المؤدي إلى الالتباس بين ماهو حق وما هو باطل.

هدى من الروايات

ومن أجل تحقيق المعنى والوصول إلى المفهوم المراد قرآنياً كاصطلاح، يمكن العمل به والتعويل عليه، لابد أن نستضيء بنور الروايات الواردة عن أهل البيت (ع)، لنقرأها ضمن معطيات الآيات القرآنية.

١. عن أبي محمد الهمداني عن رجل عن أبي عبد الله (ع) قال بعد سؤاله: **(.. المحكم ما يعمل به، والمتشابه الذي يشبه بعضه بعضاً)**[٢١].

٢. عن أبي بصير قال سمعت ابا عبد الله (ع) يقول: **إن القرآن فيه محكم ومتشابه، فأما المحكم فنؤمن به ونعمل به وندين به، وأما المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به).**

٣. عن مسعدة بن صدقة، قال سألت أبا عبد الله (ع) عن الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، قال: **(الناسخ الثابت المعمول به، والمنسوخ ما قد كان يعمل به ثم جاء ما نسخه، والمتشابه ما اشتبه على جاهله).**

٤. وسئل أبو عبد الله (ع) عن المحكم والمتشابه، قال: **(المحكم ما يعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله).**

---

[٢٠] / راجع لسان العرب، والمحيط ، والمنجد.

[٢١] / الروايات الواردة هنا جاءت في تفسير العياشي، وتفسير الصافي، والبحار، والوسائل وغيرها من الكتب المعتبرة./ راجع تفسير العياشي ج١، ص١٠.

إيضاح المعنى

لعل الناظر للروايات بنظر أولي قد يظن أنها تختلف في بيان المراد من المحكم والمتشابه، إلا أنها مكملة لبعضها، أو هي ناظرة كل واحدة إلى جهة من الجهات، وهي بأجمعها تدعم المعنى والغاية من وجودها.

فإن الروايات تعطينا دلالات وضوابط نتعرّف من خلالها على مفهوم المحكم والمتشابه، فالمحكم هو الذي وصل إلى درجة من الوثوق فيتحوّل إلى المستوى العملي والتطبيقي، أما المتشابه فهو الملتبس الذي لم ينتقل إلى حيز التطبيق، لأنه لم يزل مجهولاً، والمتشابه أمر نسبي يتفاوت بين شخص وآخر حسب إنكشاف المعنى له، فتعريف المحكم بأنه الذي يعمل به ويؤمن به، فهذه إشارة إلى الموقف والنتيجة العملية المترتبة عليه، وكذا النتيجة المترتبة على المتشابه، بأن يؤمن الإنسان به، باعتباره جزء من القرآن الكريم، ولكنه لا يعمل به، وقد نتساءل لماذا لا يعمل به، فتأتي الرواية التي توضح بأن المتشابه ما اشتبه على جاهله، فإنه مادام يجهل المعنى والمراد من الآيات، فالموقف السليم، هو أن يوقف العمل، إلا أنه لايدعوه ذلك إلى رفض الآيات، بل عليه أن يسعى إلى العلم، ليكتشف ما غاب عنه.

فكما يقول آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرّسي: **(**لأن القرآن المجيد خطاب مباشر من الله خالق كل إنسان، فلابد أن يكون مفهوماً لهم جميعاً بقدر ما يكون مهيمناً عليهم، يكون مفهوماً لأنه خطاب، ويكون مهيمناً لأنه من الله.

ولأن الناس درجات في العلم والإيمان، لابد أن تكون آيات القرآن درجات فتنشأ المشكلة، حيث تكون الدرجة العالية غير مفهومة لمن هم في الدرجات الدنيا.

وهنا يتدخل القرآن ذاته لحل هذه المشكلة، بأن يوقف هؤلاء الناس عند حدهم ويأمرهم بترك الآية غير المفهومة لهم. وتركها لمن يفهمونها ممن تتناسب درجاتهم معها بينما يكون عليهم أن يستوحوا من تلك الآيات التي تنالها أفكارهم وتتفق مع مستوى نضجهم، والقرآن الحكيم يسمي الآية المفهومة بـ (المحكم) بينما يدعو الآية التي هي أعلى من مستوى فهم القارئ بـ (المتشابه) ويأمر الناس باتباع المحكم وترك المتشابه.

ومن هنا نعرف أن الناس ليسوا سواء في المحكم والمتشابه. إذ إن المحكم الذي يبدو واضحا عند فرد لأنه في مستوى فهمه - يكون متشابها عند فرد آخر، لأنه أعلى من مستواه).[٢٢]

[٢٢] / راجع تفسير (من هدى القرآن) للمرجع المدرسي، ج١،ص٧٧ ـ الطبعة الجديدة.

(٣)

غاية المحكم إحكام المتشابهات

المتشابه هو مساحات الجهل التي تتولّد من الالتباس العقلي، والمحكم هو عملية الوصول إلى المعرفة وإتقان الحكم، وهو المرجع العلمي الذي يلجأ إليه حال الاشتباه والالتباس، ومزاولة عملية إحكام المتشابه هي عملية لتوليد المعرفة واكتشاف الحقائق المتنوّعة. وبتعبير آخر فإن المحكمات هي ثوابت القرآن والدين في جهة من جهاتها، والمتشابهات هي المتغيرات من الحوادث الطارئة والملتبسة.

يقول تعالى: **(هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ)**[٢٣].

فالآيات المحكمات هن (أم) الكتاب، والأم بمعنى الأصل، والأم هي الوالدة، ومن خلال الاستفادة من هدي الروايات السابقة نعي أن المتشابهات هي الآيات الواضحات عند العقل البشري في جانب من جوانبها، ويعمل بها، ومجال العمل بها هو فك الاشتباه والالتباس الحاصل عند العقل نتيجة جهله.

فلابد من إرجاع المتشابهات إلى أمهاتها لتتضح لدينا الرؤية، وتتم العملية كالتالي:

(المحكم) يتجه نحو (المتشابه) فينتج (محكم).

---

[٢٣] / سورة آل عمران : ٧

أو يردّ (المتشابه) إلى (المحكم) ليحكمه. فالعملية واحدة.

لذلك فإننا عندما نواجه المتشابه، فعلينا أن نسعى لإيجاد الآيات التي تحكمه وتظهر معناه.

وهذه هي تماماً حركة الحق والباطل التي شبهها القرآن..

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)[٢٤].

(وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)[٢٥].

فالمحكم هو (حق) جلي يقذف به على الالتباس ليظهر الحق.

لأن اتباع المتشابه هو اتباع للالتباس وهو (باطل) ولا يتبع المتشابه إلا الذين في قلوبهم مرض يبتغون به الفتنة كما في قوله تعالى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ)[٢٦].

فالذين في قلوبهم زيغ يتبعون (المتشابه) قاصدين بذلك إيجاد (الفتنة) وهي الباطل. وهي التي توجد الالتباس في المجتمع، أي توجد (المتشابه في المجتمع) ليضل من اتبعه.

والراسخون في العلم (الذين يعرفون المحكمات) هم الذين يعلمون تأويل الكتاب وصولاً للحق.

---

[٢٤] / سورة الأنبياء : ١٨.

[٢٥] / سورة الإسراء : ٨١

[٢٦] / آل عمران : ٧

وقد جاء في وصف المحكم أنه فرقان، فعن أبي سنان: قال: سألت أبا عبد الله عن القرآن والفرقان، قال: **القرآن جملة الكتاب وأخبار ما يكون، والفرقان المحكم الذي يعمل به، وكل محكم فرقان)**[٢٧].

والفرقان هو الذي يفرّق به بين الحق والباطل، كما في قوله تعالى: **(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)**[٢٨].

فالمحكم يفرق بين الحق والباطل، وهو تماماً ما يفعله من إزالة اللبس في العقل البشري. وروي عن الإمام الرضا(ع): **(من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه فقد هدي إلى صراط مستقيم، ثم قال: إن في أخبارنا محكماً كمحكم القرآن ومتشابهاً كمتشابه القرآن، فردّوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبّعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا)**[٢٩].

وهنا نورد آيات من سورة الحج تبين حركة إزالة (الباطل) بإحكام الآيات (سواء آيات الحياة والكون أو آيات القرآن). بعملية ممنهجة، ينبغي أن يحذو العقل البشري حذوها في طريق البحث عن المعرفة وعن الحق.

لنقرأ معاً قوله تعالى، ثم نتدبّر فيها:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[٣٠].

---

[٢٧] / تفسير العياشي، ج١،ص٩

[٢٨] / سورة البقرة : ١٨٥

[٢٩] / وسائل الشيعة ، الحر العاملي، ج٢٧،ص١١٥

[٣٠] / سورة الحج : ٥٢ ـ ٥٤

المرحلة الأولى: حدوث التشابه وهي (إلقاءات الشيطان).

المرحلة الثانية: عملية إزالة التشابه (فينسخ الله ما يلقي الشيطان)، فالله هو المرجعية.

المرحلة الثالثة: جلاء الحق (ثم يحكم الله آياته). عبر العلم والحكمة.

وبعد انتهاء عملية الإحكام تأتي النتائج كما يلي:

النتيجة الأولى: إن إلقاءات الشيطان (المتشابه أو الملتبس) فتنة يتبعها (الذين في قلوبهم مرض) وهي ذاتها النتيجة التي وردت في آية ٧ من سورة آل عمران. **(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ).**

النتيجة الثانية: الذين يتبعون العلم (بالإحكام) يهتدون إلى الحق، فتصل قلوبهم للإيمان.

إن من خطط الشيطان وأعوانه ومرضى القلوب، إيقاع التشابه واللبس بين الحق والباطل، ليتّبع الناس الباطل، أو لتبرير أعمالهم، يقول تعالى: **(وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)**[٣١].

إشكالية ضرب القرآن بالقرآن

وهنا قد يقال إن القرآن لا يفسر بعضه بعضاً أو لا يمكن أن تفهم آية بآية أخرى، وبالتالي فإن إرجاع المتشابهات من الآيات إلى الآيات المحكمات قد تكون ضمن النهج الخاطئ، فلا يصح العمل به.

ونحن إضافة إلى ما بيناه سابقاً من أن بيان ضرورة إرجاع المتشابهات إلى المحكمات، وهي صريحة في فهم آيات بآيات أخرى، نناقش النهي عن ضرب القرآن بالقرآن الذي جاء في الرواية. والرواية هي كالتالي: عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أبي (عليه السلام): **(ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر).**

كلمة ضرب يحدد مهناها بحسب السياق، فالقصد العام معروف، وهو عملية الضرب، ولكن قد تستعار لمعاني أخرى، كالسفر، أو سكّ المال، أو غير ذلك، وكما يبدو في سياق الحديث الآنف الذكر، أن الضرب هنا، بقصد التوهين، فضرب

---

[٣١] / سورة البقرة : ٤٢

آية بآية أخرى، يتوهم بأنها تناقضها أو تخالفها في المدلول، كما يقال: ضرب به عرض الحائط، أي رمى به جانباً دون الاحتياج إليه.

وقد ذكر المازندراني في شرح هذه الرواية احتمالان، يقول: "قوله: **(ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر)** يحتمل وجهين:

الأول: أن يراد بالضرب المعنى المعروف، فإن كان من باب الاستخفاف، فهو كفر جحود، وإلا فهو كفر النعمة وترك الأدب.
الثاني: أن يستعمل الرأي، في المجمل والمؤول والمطلق والعام والمجاز والمتشابه، وغيرها من المعضلات، ويجمع بينها باعتبارات خيالية، واختراعات وهمية، ويستنبط منها أحكاماً يعمل بها ويفتي بها من غير أن يكون له مستند صحيح، ونقل صريح عن أهل الذكر (عليهم السلام)، وقد نقل عن الصدوق أنه قال في كتاب معاني الأخبار: "سألت محمد بن الحسن عن معنى هذا الحديث فقال: هو أن يجيب الرجل في تفسير آية بتفسير آية أخرى"[٣٢].

وتجدر الإشارة إلى أن نقله عن الصدوق هنا، عن المعنى، بأن المراد من ضرب القرآن بالقرآن هو تفسير آية بآية أخرى، يختلف عن تفسير آية بآية أخرى، أي أن من الخطأ أن يجيب الإنسان في تفسير آية ما، بتفسير آخر لآية غيرها، حتى لو تشابهت الآيات، لما لها من خصائص وسياقات، تضيف إلى معانيها معان أخرى.

ولكن استكشاف مداليل الآيات، أو إحكام بعض المتشابهات من الآيات، بآيات أخرى، توضحها وترشد المعنى، فإن ذلك أمر آخر. وهو أمر مأمور به في روايات أهل البيت (ع).

وقد قال الفيض الكاشاني عن نفس الحديث: "لعل المراد بضرب بعضه ببعض، متشابهاته إلى بعض، بمقتضى الهوى من دون سماع من أهله، أو نور وهدى من الله،"[٣٣].

---

[٣٢] / شرح أصول الكافي، المولى الشيخ محمد صالح المازندراني، ج١١، ص٨٤

[٣٣] / التفسير الصافي، الفيض الكاشاني،ج١، ص٣٦

هذا كله مضافاً إلى تطبيقات أهل البيت (ع) في رواياتهم، فإنهم عليهم السلام، كثيراً ما يأتون بآية، ثم يحكمونها، بآية أخرى، في مقام التوضيح، ولكي لا يقع اللبس عند المستمع، وإحكام الحجة، وإننا نترك سردها في هذا المقام، رعاية لغاية البحث.

إيجابية وجود المتشابه في القرآن الكريم

وتجدر الإشارة إلى أن وجود المتشابه في القرآن الكريم ليس أمراً سلبياً حسب ما أوردنا سابقاً، ولا يمكن أن يُعرَض من هذه الزاوية، كما حاول البعض التقليل من شأن المتشابه وتعليل وجوده (بأنه يعود إلى طبيعة لغة العرب، حيث أنها ذات أوضاع، لا تفي بإفادة المفاهيم الراقية والمتسعة سعة الآفاق، فجاءت التعابير القرآنية . في مثل هذه المعاني . مستعاراً فيها، وبضرب من التشبيه والتمثيل، ليأخذ القاصر بظاهر التعبير. وربما يتغافل عن واقع المراد)[٣٤] ، وهذا التعليل الذي ذكره الشيخ هادي معرفة (رحمه الله تعالى) حاول أن يبيّن أن وجود التشابه إنما هو لعيب في اللغة لا لعيب في صاحب الخطاب، بل وقد حصر الآيات المتشابهات في عدد معيّن وهو مائتا آية فقط، وفي مواضيع محدّدة، وهذا القول إضافة إلى أنه لا دليل عليه، فهو يعرض المتشابه في معرض السلب، والقرآن الكريم يشير صراحة إلى وجود المتشابه في القرآن الكريم حتى وصف القرآن كلّه بانه متشابهاً في سياق الوصف والمدح في قوله تعالى: **(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** [٣٥].

[٣٤] / التأويل في مختلف المذاهب والآراء، المحقق الشيخ محمد هادي معرفة، ص ١٥.

[٣٥] / سورة الزمر : ٢٣

(٤)

علاقة المحكمات والمتشابهات بالواقع

المتشابه حالة تصيب العقل تجاه النص أو تجاه الواقع المنعكس على النص، فموضعها العقل البشري وموضوعها (النص والواقع). ومن أجل إيضاح ذلك نأتي على مفردات هذه المقولة.

التفكّر في كتاب الحياة

إن القرآن الكريم يرشد الإنسان إلى ضرورة التفكر في الكون والحياة اليومية التي يمارسها الإنسان بحيث لا يكون معزولاً عنها وعن مجرياتها، ونجده في آيات كثيرة يرجع الإنسان إلى مطالعة الكون والاهتمام بالكائنات التي يعايشها أو بالظروف والممارسات التي تحيط به، أو بالحالات والمشاعر الفطرية التي تعتري الإنسان من حزن وفرح واستنفار ومرض وولادة واستباق وخوف وحسرة وما شابه ذلك.. كل ذلك ليعطي للحياة ومجرياتها أهمية يمكن من خلالها اكتشاف الحقائق. فسنن الله في الكون والحياة لا يمكن أن تتبدّل من زمان إلى آخر.. فإن من يفقد ابنه العزيز على قلبه يعتصر حزناً ويذرف الدموع عليه، فذلك الشعور الفطري موجود منذ أن خلق الله البشر وسيبقى إلى آخر يوم من حياتهم.

وكل ذلك الخلق الكوني وما يحويه من مخلوقات أوجدها الله تعالى وفق نظام دقيق وميزان متطابق مع ميزان الحق، يقول تعالى: **(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ)**[٣٦].

[٣٦] / سورة الحجر : ٨٥

ومن تلك الحقائق الواضحة أن الله تعالى حدّد أوقات العبادات وفقاً لمقاييس الكون وحركة الشمس والقمر، وقال: **(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)**[٣٧].

فقرآن الفجر يشهده الجميع ويستشعره كل عاقل، وكذلك آيات السماء والأرض هي آيات لقوم يعقلون.

قال تعالى: **(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)**[٣٨].

فتلك الآيات هي سنن لا تقبل التبديل والتحويل.

لذلك فإن العلماء هم الذين يصلون لدرجة الخشية من الله لما عرفوا من حقائق وآيات الكون، في قوله تعالى: **(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)**[٣٩]، فقد جاءت صفة العلم في سياق الحديث عن تعدد المخلوقات وصفاتها، مما يدل على أن العلماء هم العلماء بالطبيعة والكون، والمتفكرون فيها. لما يؤدّي ذلك العلم إلى نور الهداية عن طريق خشية الله تعالى، إذا ما تمّت عملية إيصال هذه المعرفة بنور الحق واتباع دلائل القدرة والعظمة والحكمة.

فمن هنا تبزغ أمامنا حقيقة ساطعة وهي أن حقائق الكون التي يشهدها العقلاء هي آيات محكمات يرجع إليها الإنسان في ضبط الفهم، وتقريب المعاني، وإنتاج المعرفة.

---

[٣٧] / سورة الإسراء : ٧٨

[٣٨] / سورة البقرة : ١٦٤

[٣٩] / سورة فاطر : ٢٨

فعندما يريد الله تعالى أن يشعر الإنسان بضعف الحضارة التي تعتمد البعد المادي الشكلي، وتتخلّف عن البعد الغيبي والمضمون القيمي، يشبهها ببيت العنكبوت، لينسبق إلى الأذهان ذلك البيت المنظّم من حيث الشكل والنسق، إلا أنه يتطاير عند مواجهة نفخة بسيطة من فم إنسان، ليسشعر مقدار الضعف وخطر السقوط والانهيار للحضارات التي ابتعدت عن قيم السماء، يقول تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[٤٠].

وفي المقابل يحجّم القرآن الكريم كل جهود الكفار في وأد الرسالة وقيمها، ويصفها بأنها كالنفخ بالأفواه، والتي لا تؤثر شيئا على المشروع الإلهي لإتمام الرسالة.. حيث يقول تعالى:

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[٤١].

هنا يكون الواقع شارحاً ومبيناً لمقاصد النص، ليستوعبه العقل البشري استيعاباً محكماً.

وفي مثال يدل على انسجامية آيات القرآن، وآيات الكون، يضرب الله لنا الأمثال لتعيها أذن واعية، فيقول تعالى:

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ)[٤٢].

---

[٤٠] / سورة العنكبوت : ٤١

[٤١] / سورة الصف : ٨

[٤٢] / سورة الرعد : ١٧

فهكذا يضرب الله الأمثال فيكون ماء السماء بالنسبة للأرض، كنور العلم بالنسبة للقلوب، يستوعب كل بقدر سعته، فتسيل المياه في الأودية الأرضية بقدر استيعابها، ويسيل العلم في الأوعية القلبية مستقبلة العلم كل بقدرها، وخيرها أوعاها كما في الحديث.

فخلق الله تعالى هو أمر واضح معروف ومشهود لكل الناس، لذلك هو مرجعية يحتج بها عليهم، كما في قوله تعالى:

(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)[٤٣].

فالخلق واضح غير متشابه إلا أن الإنسان هو الذي قد يفقد البصيرة، ولا يستوي الأعمى والبصير.، وتنشأ المتشابهات في الواقع نتيجة اتباع الهوى والفتن والاستجابة لحالات الضعف، ونتيجة التحديات الناتجة عن تدافع الإنسان وصراعه، كما ذكرنا ذلك فيما مضى من إلباس الحق بالباطل في الواقع الخارجي، بل ينشأ التشابه في الواقع نتيجة الحاجة عبر التساؤل عن الأحكام وأفضل السبل وأجدى الخيرات وما شابه ذلك.. وقد عبّر المرجع الديني السيّد المدرّسي عن هذه الحالة من رد (المتشابه في الواقع إلى المحكم) برد الفروع إلى الأصول لمعرفة الأحكام[٤٤].

مفهوم الحزن

[٤٣] / سورة الرعد : ١٦

[٤٤] / راجع التشريع الإسلامي، ج٢،ص ١٧٢.

إضافة إلى الأمثلة التي ذكرناها ندرج هنا مثالاً حول مفهوم الحزن في القرآن، وكيفية الاستفادة من الحياة الفطرية للإنسان في بلورة المفهوم، يذكر هذا المقال المرجع المدرسي في حوار معه، ويقول:

"أضرب لكم مثلا حول (الحزن) في مورد ان من الفضائل عدم الحزن والخوف عند الموت **(لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** فما هو معنى الحزن الذي لا يصيب الإنسان في تلك الحالة هل هو الكآبة، أم الانقباض أم الندم أم ماذا، فكيف نفهم من الناحية الشرعية ان هذه الحالة حزن أم لا، وما هو مصدر هذا الفهم؟

أتصور أن بإمكاننا ان نعرف ذلك من خلال الآية المباركة على لسان النبي يعقوب (ع) **(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)** [يوسف : ١٣] . فهذه الحياة مليئة بالآباء الذين لديهم أبناء واذا غاب هؤلاء الأبناء عن آبائهم أو ضاعوا تصيبهم حالة عبر عنها القرآن بالحزن، ورغم ان الحزن ليس مفهوما غامضا وإنما هو من المفاهيم الواضحة، إلا ان في القرآن دائما ما يمكن ان تستنبط منه المعاني حتى في الأمور الواضحة، فعلاقة الإنسان بابنه علاقة فطرية، وغياب الإبن عن أبيه يسبب شيئا ما في نفسه، هذا الشيء يطلق عليه القرآن (الحزن) فمن هنا نفهم أن هذه الحالة التي تحصل لدى الأب هنا لا تصيب المؤمنين يوم لقاء ربهم إذ **(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)** [الأحقاف : ١٣] . وهذه هي طريقة القرآن في كثير من الألفاظ إذ هو يوضحها في الأمور الحياتية اليومية التي يعيشها الناس حتى نفهمها في الأمور المعقدة"[٤٥].

الفهم الخاطئ لمعنى الواقع

لا يخفى أن مقصودنا من اتصال الواقع بفهم النص الديني والعكس، هو بالآلية التي طرحناها سابقاً ودللنا عليها، وليس المقصود هو ما يطرح في بعض البحوث المعاصرة من حاكمية الواقع الاستحساني أو الواقع الثقافي المعتمد على قيم قبليّة، وليس هو الواقع المعتمد على الفهم السطحي للأمور، كما يدّعي البعض من أن الواقع له حاكمية ومدخلية في فهم

[٤٥] / مجلة البصائر الدراساتية.

الخطاب والنص، من دون ضوابط تذكر، فيورد قوله تعالى: **(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)**[٤٦]. فيقول "حيث يلاحظ من جهة الواقع أن الريح لا يمكنها أن تدمّر كل شيء في عالم التكوين والخلق وما تدمّره هو أشياء بسيطة مقارنة مع ما هو موجود على سطح الأرض"[٤٧].

وهنا وإن كانت النتيجة أن الريح المقصودة لم تحطّم كل شيء فعلياً، إلا أن جهة الفهم لا ينبغي أن تعوّل على الفهم القاصر للحقائق، فهو قد عوّل ذلك على عدم إمكانية الريح فعل ذلك، غافلاً عن قوله تعالى **(بأمر ربها)**، و**(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**، فينتفي الاستدلال هنا في مقام الثبوت، حيث أن الله تعالى قادر على فعل كل شيء، ومن هنا ففي مثال الآية ينبغي أن يكون (كل شيء) متشابه ينبغي البحث عن أصله ومحكماته. أي ينبغي البحث عن متعلّق العموم الذي شمله التدمير، فملاحظة سياق الآية يقول تعالى عن نتائج ذلك التدمير: **(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)**، فإذا نظر إلى واقعهم لن يشاهد إلا المساكن خاوية من دون بشر أو متعلقات أخرى، فكل شيء (أي أنفسهم وأموالهم ماعدا المساكن لتدّل على أثرهم).. فتحكيم مساحات الجهل هو عين المشكلة التي تحدّث عنها القرآن في إتباع المتشابهات والتي تؤدّي إلى الانحراف.

وفي ختام هذا المبحث ننقل رواية مهمّة توجه إلى الرجوع إلى كتاب الله عندما تلتبس الأمور في الواقع.

روى جعفر بن محمد بن مسعود عن أبيه عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أيها الناس انكم في زمان هدنة وأنتم على ظهر السفر، والسير بكم سريع، فقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، فأعدوا الجهاز لبعد المفاز.

فقام المقداد فقال: يا رسول الله ما دار الهدنة؟

---

[٤٦] / سورة الأحقاف : ٢٥

[٤٧] / جدلية الخطاب والواقع ، يحي محمد، ص٤٤

قال: دار بلاء و انقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، وماحل مصدق، من جعله امامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو [كتاب فيه] تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل، ليس بالهزل، له ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنازل الحكمة ودليل على المعروف لمن عرفه)[٤٨].

[٤٨] / تفسير العياشي – محمد بن مسعود العياشي – ج ١ – ص ٢ – ٣

(٥)

الإحكام بين النص والواقع

عملية الإحكام التي ذكرناها وهي رد المتشابه إلى المحكم في النص القرآني، لا تنحصر في حدود النص، فقد تتم عمليتها داخل النص من أجل فهم النص، وأحياناً تتم داخل النص من أجل فهم الواقع، فهنا هي عملية إفاضة المحكمات من النص القرآني على متشابهات النص القرآني، وعلى متشابهات الواقع. كما أن محكمات الواقع يستفاد منها في معرفة متشابهات النص أيضاً، أما أثر محكمات الواقع على متشابهات الواقع فنترك الحديث عنها لعدم ارتباطها بمعرفة النص الذي هو مدار حديثنا، وإن كان الحديث فيها ذا فائدة.

وتأسيساً على ما سبق يمكن وضع تخطيط لمعادلات عملية الإحكام كالتالي:

- النص المتشابه ـ يردّ إلى ـ النص المحكم ـ ينتج ـ (الحق، العلم).
- النص المتشابه ـ يردّ إلى ـ الواقع المحكم ـ ينتج ـ (الحق، العلم).
- الواقع المتشابه ـ يردّ إلى ـ النص المحكم ـ ينتج ـ (الحق، العلم).

آلية إحكام المتشابهات

من أجل تطبيق عملية إحكام المتشابه نحتاج إلى قواعد عامّة ندخل من خلالها إلى الأفق التطبيقي لمزاولة المعرفة وإنتاجها، خروجاً من البحث المفهومي إلى البحث التطبيقي، وعملية التقعيد هي العملية التي تمكننا من نقل المفهوم من

العالم النظري إلى عالم التطبيق، ومن أجل ذلك نتعرّض لقاعدة قرآنية في بحثنا، نتطلّع إلى أن تفتح لنا أفق النص على الواقع وأفق الواقع على النص، نعرضها كمثال، ونسأل الله أن نوفق للمزيد.

والقاعدة هي بمثابة الدليل الذي يدل على الحدود والمفاهيم، كما في رواية عن عمرو بن قيس عن أبي جعفر (ع) سمعته يقول: **إن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً يحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله، وجعل لكل شيء حدّاً وجعل دليلاً يدل عليه..**)[٤٩].

الولاية (النموذج) محور الآيات المحكمات

للولاية (كنموذج) الأثر الكبير في معرفة المحكم من القرآن الكريم، ليمكن إرجاع المتشابهات إليها، والولاية التي نقصدها هي المستمدّة من ولاية الله تعالى على سبيل التعيين كما في قوله تعالى: **(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)**[٥٠].

فولاية الله والذين آمنوا في سياق هذه الآية هم أهل بيته الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

فلم يقتصر الله عز وجل على إرسال الكتب السماوية للبشر ليدعوهم إلى الهدى، وإنما بعث فيهم رسلاً منهم، وعيّن بعد الرسل أئمة يهدون بأمره، ليجسّدوا واقع الكتاب على الأرض، فيصبحوا قرآئين ناطقة ببيّناته وهديه، حيث قال تعالى: **(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)**[٥١].

لذلك فإن معرفة الولاة الحقيقين هي بمثابة التسلّح بالنور وبمصابيح الهداية، أمام نص القرآن الكريم ذلك الكتاب المبين، فيتحد النور مع النور، ويكون مصداقاً للآية الكريمة:

---

[٤٩] / تفسير العياشي/ ج١، ص٦.

[٥٠] / سورة المائدة : ٥٥

[٥١] / سورة المائدة : ١٥

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[٥٢].

فمن خلال معرفة أهل البيت (ع) ومعرفة سيرتهم الإجمالية المتواترة يمكن التعرّف على حقائق هامّة ويمكن أن تنفتح أمامنا الأبواب المغلقة، وتتضح المبهمات وتنقشع السحب الملبّدة من سماء العقل والقلب، ليلامس الحقائق.

من هنا يتكوّن الارتباط بين الولاية وبين (المحكم والمتشابه) في النص القرآني، فولاية أهل البيت (ع) هي محكمات وثوابت ولها ارتباط أساسي بمحكمات القرآن الكريم التي إذا عرفت أزيل اللبس وابتعد عن الزيغ، وهنا نورد بعض الروايات التي تدل على هذه الحقيقة المعرفية العظيمة.

- عن أبي عبد الله عليه السلام: **ان الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محكم القرآن، وبها نوهت الكتب ويستبين الايمان، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقتدى بالقرآن وآل محمد، وذلك حيث قال في آخر خطبة خطبها: انى تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر، و الثقل الأصغر، فأما الأكبر فكتاب ربى، واما الأصغر فعترتي أهل بيتي فاحفظوني فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما**[٥٣].
- عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن جده (ع) قال: خطبنا أمير المؤمنين (ع) خطبة فقال فيها: **نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وان محمدا عبده ورسوله، أرسله بكتاب فصله وأحكمه وأعزه وحفظه بعلمه وأحكمه بنوره، وأيده بسلطانه)**[٥٤].

قاعدة (المثل الأعلى)

---

[٥٢] / سورة النور : ٣٥.

[٥٣] / تفسير العياشي - محمد بن مسعود العياشي - ج ١ - ص ٥.

[٥٤] / تفسير العياشي - محمد بن مسعود العياشي - ج ١ - ص ٧ – ٨

من خلال المقدمة المذكورة يمكننا اكتشاف قاعدة تطبيقية يستفاد منها في معرفة المحكمات لرد المتشابهات إليها، ونطلق عليها، قاعدة (المثل الأعلى).

إن الله تعالى أوجد النموذج الأمثل والأعلى والأفضل والأكمل في القرآن الكريم، مقابل الأمثال الدنيا وأمثال السوء، والمثل الأعلى والأفضل هو النموذج الذي ينبغي أن يحتذى ومنه تنكشف الحقائق التطبيقية، وهذا هو الفرق بين الحقائق النظرية البحتة وبين الحقائق العملية التي تقوم بمهمّة الإيضاح والتعريف كمقاربة واقعية للعقل.

والقرآن الكريم لا يطرح قضية نظرية مجرّدة وحسب، وإنما يطرحها من جانب عملي أو واقعي، وفي سياقها الفاعلي في الحياة، "فإن القرآن الحكيم لا يحدثنا عن قضية في جانبها النظري، إلا وتطرق إلى جانبها العملي أيضا، فلا يدع النظريات بلا برامج عملية، كما لا يترك المناهج العملية من دون جذور نظرية.

ولمسؤولية الإنسان في الحياة الدنيا علاقة بالمناهج التي جاءت بها الآيات، ولذلك قال بعض المفسرين بأن السورة (الكذائية) قد خصصت للبرامج العملية وقال بعضهم :بأنها تبحث القضايا النظري. وكلاهما صادق في تفسيره لأن السورة تحدثنا عن الواقع كواقع، سواء كان نظريا أم عمليا"[٥٥].

وقاعدة (المثل الأعلى) أو النموذج الأمثل، نجدها على مستوى حركة الإنسان وتوصيفاً له، في قوله تعالى: **(لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)**[٥٦].

كما نجدها في حركة الطبيعة وتوصيفاً لها، كسنة ثابتة ومشتركة، حيث يقول تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)**[٥٧].

- ففي البشر يبيّن المثل الأعلى السلوك الأمثل من خلال النموذج الأكمل.
- وفي الكون، المثل الأعلى هو مظاهر الحكمة والجمال والعطاء كلها من الله تعالى.

---

[٥٥] / تفسير من هدى القرآن ، المرجع المدرسي، ج٤/ص٤٢٩ ـالطبعة الجديدة.

[٥٦] / سورة النحل : ٦٠.

[٥٧] / سورة الروم : ٢٧

- إذاً فآثار السوء في حياة الإنسان هي من سوء فعل الإنسان، وآثار الخلل في الطبيعة ونظام الحياة أيضاً يتحمله الإنسان، لأنه شذّ عن السلوك القويم، والصراط المستقيم.

فأهل البيت (عليهم السلام) الذين استمدوا ولايتهم من الله تعالى أعطاهم ربهم الصفات الحاكمة والمحكمة التي تكوّن (المثل الأعلى) كحالة تطبيقية، فمن هنا جاء تعبير (القرآن الناطق) كدلالة على الحركة العملية المجسّدة لقيم الله على الأرض، وفي القابل (مثل السوء) وهو لأعدائهم، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وقد جسّدوا الرذائل بشتّى صورها.

ونذكر هنا مجموعة من الأحاديث تؤكّد هذه الحقيقة، وهذه القاعدة.

- عن مسعدة بن صدقة عن أبي جعفر (ع) عن ابيه عن جدّه قال: قال أمير المؤمنين (ع) **سموهم بأحسن أمثال القرآن** يعني عترة النبي (ص)، هذا عذب فرات فاشربوا، وهذا ملح أجاج فاجتنبوا)[٥٨].
- عن أبي الجارود قال: سمعت ابا جعفر (ع) يقول (نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع في عدونا، وربع في فرايض وأحكام، وربع سنن وأمثال **ولنا كرائم القرآن)**[٥٩].. وفي رواية (نزل القرآن أثلاثاً ثلث فينا وفي عدونا..). وفي رواية (ثلث فينا وأحبائنا..).
- عن محمد بن مسلم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: **يا محمد إذا سمعت الله ذكر أحدا من هذه الأمة بخير فنحن هم. وإذا سمعت الله ذكر قوما بسوء ممن مضى فهم عدونا"**[٦٠].

أمثلة بارزة

- قال تعالى: **(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)**[٦١].

---

[٥٨] / تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي ج١، ص١٣.

[٥٩] / العياشي، ج١، ص٩

[٦٠] / تفسير العياشي - محمد بن مسعود العياشي - ج ١ - ص ١٣

[٦١] / سورة الرعد : ٤٣

فإن الرسول (ص) يشهد الله على صدق نبوته أمام أهل الكتاب، والظاهر من الآية أنه أشهد قوماً آخرين من جنس البشر وهم (من عنده علم الكتاب)، فمن هم هؤلاء؟

الظاهر القرآني يفيد أن هنالك مجموعة من العلماء كان لديهم علم الكتاب الذي يؤمنون به، فلديهم دلائل النبوّة، ويمكن لمن ينكرها أن يرجع إليهم، وهذا المعنى وجه من وجوه الآية، إلا أن هنالك وجه آخر يمكن الركون إليه من خلال قاعدة (المثل الأعلى) فمن عنده علم الكتاب هم أهل البيت (ع) فتكون شهادتهم للرسالة شهادة مستديمة غير منقطعة، وخصصناهم لأنهم قد أشير إليهم كمرجعية للشهادة وكعلماء بالكتاب.

(وقد وردت الروايات الكثيرة من المعصومين (ع) التي تؤكّد أن المعني بهذه العبارة هو أمير المؤمنين (ع) والأئمة المعصومين من ذريته(ع)، ولا ريب في أن أئمة أهل البيت (ع) هم أبرز مصاديق (ومن عنده علم الكتاب)، فقد سئل الإمام الباقر (ع) عن هذه الآية، فقال: (إيانا عنى، وعليّ أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي(ص))[٦٢].

وفي رواية معبّرة تعبيراً صريحاً بما نحن بصدده، فقد جاء عن عمر بن حنظلة عن أبي عبد الله (ع) عن قول الله **(قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب)** فلمّا رآني أتتبع هذا وأشباهه من الكتاب، قال: حسبك كل شيء في الكتاب من فاتحته إلى خاتمته مثل هذا فهو في الأئمة عنى به)[٦٣].

قال الفيض الكاشاني بعد بحث لطيف عن هذا الحديث: (وقد فتح هذا الحديث باباً من العلم انفتح منه ألف باب)[٦٤].

- عن الإمام أبي عبد لله الصادق (ع): **(من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا فليقرأ سورة محمد (ص)، فإنه يراها آية فينا وآية فيهم)[٦٥].**

---

[٦٢] / تفسير (من هدى القرآن) المرجع المدرسي ،ج٤،ص٢٢٢

[٦٣] / تفسير العياش/ج١/ص١٣.

[٦٤] / تفسير الصافي/ج١/ص٢٨

[٦٥] / (من هدى القرآن) عن تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ٢٥

من هو الذي عبس وتولى؟

- وتطبيقاً لقاعدة (المثل الأعلى) يمكن بكل يسر أن نعالج آية **(عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَن جَاءهُ الْأَعْمَى)** التي اختلف فيها المفسرون، وقد اشتبه اشتباهاً عظيماً من قال أنها نزلت في رسول الله (ص)، فالعبوس فعل منفّر، فلا يتطابق مع (الخلق العظيم) الذي تحدّث عنه القرآن الكريم منسوباً للرسول (ص)، فتطبيق قاعدة المثل الأعلى يقتضي صرفها عن الرسول (ص)، وإن قال بعض أن الخطاب في السورة جاء موجهاً إليه (ص)، فالقرآن الكريم (نزل بإياك أعني واسمعي ياجارة) كما قال الإمام الصادق (ع)، فأي ذم أو تقريع أو عمل سلبي في القرآن الكريم لابد أن يعرف فيمن هو، فهي مصاديق (للمثل السيء) والتي هي من صفات أعداء أهل البيت (ع).

وإن قيل: كيف تقولون بأن العبوس فعل منفّر، أهو استحسان بنيتم عليه أساس الرفض؟، نقول إضافة إلى فطرة الإنسان السليمة التي تستقبح ذلك، فأن سياق الآية نفسها أخبرنا بذلك، ولذلك جاء النهي والعتاب على هذا العمل، كما أننا لو تتبعنا القرآن الكريم، لوجدنا أنه يصف يوم القيامة بأنه يوم عبوس قمطرير، **(إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً)** [الإنسان: ١٠]، أي مكفهر عابس، لهذا أصبح هذا الفعل في قائمة المثل السوء، وهو ما ينبغي أن ينسب إلى أعداء النبي (ص) وأهل بيته (ع).

ما هي فوائد هذه القاعدة؟

١/ معرفة طريقة تطبيق الأحكام من ناحية بشرية. (كان خلقه القرآن) و(تخلّقوا بأخلاق الله).

٢/ معرفة أبعاد خفية في الآيات وآفاق أخرى غير ما يستفيده من الظاهر. (القرآن الناطق).

٣/ معرفة حقائق تاريخية يمكن الرجوع إليها وتحكيمها عند ورود الاختلاف.

٤/ معرفة حقائق عقيدية من خلال معرفة مقامات أهل البيت (ع) وفضلهم.

شمولية قاعدة (المثل الأعلى)

ولا تقتصر قاعدة المثل الأعلى على معرفة السلوك الأمثل من خلال أهل البيت(ع)، وإنما هي قاعدة عامة تشمل كافة الأفكار القرآنية والمعارف والأنظمة، مقابل الأفكار البشرية الضالة أو الأنظمة المبتدعة الشاذة عن النظام القرآني، كما قال تعالى: **(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً)**[٦٦].

وقوله تعالى: **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)**[٦٧].

فقاعدة المثل الأعلى هنا تجترح جانباً آخر من توليد المعرفة، متصلاً بإرجاع النماذج والأنظمة البشرية في كافة جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلى النماذج والأمثال القرآنية لتحكمها. وهو من قبيل (إرجاع المتشابه الواقعي) إلى المحكم القرآني.

وننقل في هذا السياق كلاماً للمرجع المدرسي في تفسير (من هدى القرآن) من دون زيادة أو نقصان، لما رأينا أنه يلبّي المطلوب.

(ربنا الرحمن شافي بالقرآن أمراض المجتمع البشري المتمثلة في الثقافات الجاهلية. فكلما طرحت فكرة جاهلية غامضة جاء الوحي بالحق المبين:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً)[٦٨].

ما هو المثل؟

يبدو أن كل مجموعة فكرية يعبر عنها بمثل (أو حسب تعبيرنا اليوم بشعار) والأمثلة عند الناس تختزل حشدا متناسقا من الأفكار، وتعبر عن سلسلة فكرية متشابكة.

ولتوضيح ذلك دعنا نضرب مثلا:

---

[٦٦] / سورة الفرقان : ٣٣

[٦٧] / سورة الكهف : ٥٤

[٦٨] / سورة الفرقان : ٣٣

ألف: العشائرية نهج اجتماعي، وقيمة فكرية كان شعارها " أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وأخي وابن عمي على الغريب "

ولكن القرآن يقول: **(كونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ)**[٦٩] ،إن هذا هو الحق يواجه ذلك المثل الشائع.

باء: القومية إطار سياسي يعبر عنه المثل ينفيه القرآن بقوله **(أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ)**[٧٠] وتقابلها العالمية الإسلامية التي يقول عنها الرب: **(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)**[٧١].

جيم: وهكذا عبادة الأصنام منهج سياسي عبرت عنه قريش بشعارهم في غزوة أحد: قال أبو سفيان: (اعل هبل) وقابلها الرسول بالحق حيث قال-: الله أعلى وأجلّ».

وهكذا في سائر الحقول جاء الوحي منجّما لكي يواجه الثقافات الجاهلية مثلاً بمثل أحسن، وفكرة باطلة بحق واضح ذا تفسير حسن بليغ"[٧٢].

ومن هنا يجد السيد المدرّسي أن (أسباب النزول) عبارة ليست دقيقة على نزول القرآن منجّماً، فالوقائع لم تكن سبباً لنزول الآيات، وإنما كانت مصاديق وتأويلات لها[٧٣]، وهذا المفهوم يتناسق مع فهم قاعدة (المثل الأعلى) وما يقابلها من (مثل السوء).

---

[٦٩] /النساء : ١٣٥

[٧٠] / فصلت: ٤٤

[٧١] / الأنبياء : ٩٢

[٧٢] / تفسير من هدى القرآن ، المرجع المدرسي، ج٦،ص١٢٤.

[٧٣] / راجع تفسير من هدى القرآن، ج١٢،ص٢٩.

خاتمة

عندما نقرر أن بعد التوليد المعرفي هو البعد الأهم، بل هو سر وجود المتشابه القرآني لتتفرّع منه الأحكام والمعارف، فإن بحوثنا في المحكم والمشابه يمكنها أن تأخذ أشكالاً مختلفة عن السائد في التعاطي مع علوم القرآن الكريم، لذلك فإن عين الباحث ستكون موجّهة نحو اكتشاف مزيد من القواعد التوليدية التي تنفتح منها كثير من الأبواب، وبناء على ذلك نشير إلى ضرورة التالي:

- النظر لعلوم القرآن الكريم كأدوات معرفية لإنتاج المعرفة.
- الانتقال من البحث المفهومي، إلى البحث الآلي (البحث عن القواعد العملية والقانونية).
- ضرورة البحث عن المحكمات كأصول ترجع إليها الفروع المتشابهة.
- توسع البحث بين (النص والواقع) لاكتشاف علاقة (الإحكام والتشابه) بينها.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد (ص)، وعلى آله الهداة الميامين (ع)، وأصحابه المنتجبين.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي.
٣. الكافي، الكليني
٤. ميزان الحكمة، للريشهري
٥. القرآن حكمة الحياة، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي
٦. تفسير القمي، علي بن إبراهيم
٧. تفسير الصادقي، الفيض الكاشاني
٨. تفسير من هدى القرآن، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي
٩. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزماني
١٠. لسان العرب، لأبن منظور
١١. التأويل في مختلف المذاهب والآراء، الشيخ محمد هادي معرفة
١٢. تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي.
١٣. وسائل الشيعة، الحر العاملي
١٤. شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني
١٥. التشريع الإسلامي، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي
١٦. جدلية الخطاب والواقع، يحيى محمد.
١٧. مجلة البصائر الدراساتية.